الكاتب: د/نجاة الجويني
كلية الآداب والفنون والانسانيات
بمنوبة-جامعة منوبة

عنوان المقال: الجيش المملوكي: المماليك السلطانية

najet_jouini@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/05/07 تاريخ القبول:2020/05/30 تاريخ النشر: 2020/06/30

الجيش المملوكي: المماليك السلطانية

الملخص بالعربية:

يهدف هذا المبحث إلى إبراز خصوصيات الجيش المملوكي، من حيث تنظيمه وتركيبته، وكذلك من خلال الدور السياسي والعسكري والديني الذي لعبه داخل الدولة المملوكية بصفة خاصة، وداخل المجال الإسلامي بصفة عامّة، برفعه راية الجهاد ضدّ الصليبيين في بلاد الشام، وكذلك بدفاعه على المجال الإسلامي ضدّ المغول. وقد يكون هذا الدور هو الذي جعل الجيش المملوكي ضمن النخب العسكرية في العالم الإسلامي وخاصة فرقة المماليك السلطانية، التي كانت تحظى بامتيازات عديدة.

كلمات مفتاحية: الدولة المملوكيّة، الجيش المملوكي، المماليك السلطانيّة، المصادر الوثائقيّة، نخبة عسكرية.

Abstract :

This topic aims to highlight the peculiarities of the Mamluk army, in terms of its organization and composition, as well as through the political, military and religious role that it played within the Mamluk state in particular, and within the Islamic field in general, by raising the banner of jihad against the Crusaders in the Levant, as well as by defending the Islamic field against The Mongols. This role may have made the Mameluke army among the military elites in the Islamic world

Key Words: Mamluk State, Mamluk Army, Royal Mamluk, Documentary Sources, Military Elite.

مقدمة:

البحث في تاريخ الدولة المملوكية التي حكمت مصر وبلاد الشام حوالي ثلاثة قرون، من أوسط القرن السابع للهجرة الموافق للقرن الثالث عشر ميلادية إلى مطلع القرن العاشر للهجرة الموافق لمطلع القرن السادس عشر، يُحيلنا بالضرورة إلى البحث في أسباب هذا الاستمرار الزمني الهام نسبيّا رغم تعدّد الأخطار الخارجيّة، ولعلّ ما يفسّر لنا ذلك هو أهميّة الجيش المملوكي من حيث تنظيمه، وكذلك دوره في تواصل واستمرارية الدولة من حيث بقيّة نظمها وخاصة من حيث حدودها الجغرافية وعلاقاتها الداخلية والخارجيّة. فالمصادر التي كُتبت في ظلّ هذه الدولة، ومنها المصادر الوثائقيّة[21]، قد بيّنت ذلك، كما بيّنت أيضا أنّها دولة عسكريّة بامتياز، وأنّ بقيّة النظم كانت بدرجة أولى لخدمة الجيش

المملوكي وعلى رأسه السلطان الذي عادة ما يكون عسكريّا بدرجة أولى. فالدولة المملوكيّة نشأت على العناصر المُستعبدة، والتي كانت المصدر الرئيسي لرجال الدولة والجيش، ولم تسمح لغير المماليك بالولوج في الجيش الذي بقي مغلقا وحكرا على المماليك فحسب، فأبناء المماليك ليس لهم الحق في الانتماء للجيش لأنّهم ليسوا مماليك.

فالجيش المملوكي يتنزّل ضمن الأطراف الدخيلة على العنصر العربي والذين ساعدتهم العديد من الظروف على اغتصاب السلطة وفرض الهيمنة على المجتمعين المصري والشامي بداية من منتصف القرن السابع للهجرة/ أواسط القرن 13م إلى حدود القرن العاشر للهجرة/ مطلع القرن 16.

كما تعتبر الدراسات الحديثة أنّ الدولة المملوكية هي دولة عسكرية بامتياز وأنّ الجيش هو المهيمن على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي هذا الإطار يتنزّل الجيش المملوكي كنخبة من النخب العسكرية غير العربية.

لكن في هذا المبحث لن نهتمّ بالجيش المملوكي ككلّ، بل بفئة أو فرقة تنتمي إليه، والتي تمثّل نخبة داخل النخبة العسكريّة، وهي فئة المالك السلطانية. ممّن تتكوّن هذه الفئة العسكرية؟ ماهي مكانتها في الجيش المملوكي؟ مالذي يميّزها عن بقية الفرق العسكرية الأخرى في الجيش؟

ثمّ ما مدى التطابق في دورها بين ماهو مطلوب منها وما وُجد على أرض الواقع؟ يعني علاقتها بالسلطان من ناحية؟ ودورها في الدولة من ناحية أخرى؟

لكن قبل دراسة هذه الفرقة، فإنّ منهجية البحث تقتضي ضرورة إبراز التنظيم العسكري المملوكي.

I- التنظيم العسكري للدولة المملوكية:

تتكوّن المؤسسة العسكرية المملوكية من عنصرين: الجيش وديوان الجيش وهو الهيكل المخصّص لتسيير شؤون الجيش.

بالنسبة لديوان الجيش: تبيّن المصادر التي كتبت في ظلّ الدولة المملوكية الأولى[3]، أنّه يتصدّر الهرم السياسي للدولة، والإداري للنظم المملوكية. في حين تجعل بعض الدراسات[4] واستنادا على بعض المصادر المتأخرة أي التي كتبت في ظلّ الدولة المملوكية الثانية[5] أنّ هذا الديوان يأتي في المرتبة الثالثة بعد الوزارة وديوان الإنشاء. ولكن مهما كانت رتبة هذا الديوان مقارنة بالدواوين الأخرى في الدولة، فإنه يحظى بمكانة متميّزة ونتبيّن ذلك من خلال تنظيمه وكيفية الانتماء إليه ومن يعمل به.

1- تركيبة ديوان الجيش: [6]

يتكوّن ديوان الجيش من الوظائف الآتية:

- أرباب الوظائف العسكريّة، ويعرفون في المصادر المملوكيّة بأرباب السيوف[7]. وتقع تسميتهم مباشرة من السلطان بما يعرف "بالتوقيع الشر هم أساسا[8]:
- ناظر الجيش: هي أعلى رتبة في ديوان الجيش مهمّته السهر على حسن سير المؤسّسة العسكريّة في الدولة وهو في علاقة مباشرة مع السلطان المملوكي، كما أنّه عسكري بدرجة أولى أي يقع اختياره من المماليك السلطانية.
- نائب ناظر الجيش: هي خطّة نيابية، مهمة هذا النائب تسيير شؤون المؤسسة العسكريّة عند خروج ناظر الجيش مع السلطان في حرب أو للصيد، وتذكر المصادر[9] أنّ نائب ناظر الجيش عادة ما يشكّل خطرا على ناظر الجيش فيكيد له مع السلطان للإطاحة به وحتّى قتله.
- صاحب ديوان الجيش: وهو رئيس القسم المختصّ في التدوين داخل المؤسّسة العسكريّة ويتكوّن هذا القسم من مستوفي ديوان الجيش، وكتّاب ديوان الجيش، وشهود ديوان الجيش، وهم بدورهم عناصر من الفرق المكوّنة للجيش.

- صاحب ديوان المماليك: يترأس فرع في ديوان الجيش يهتمّ بشؤون المماليك الذّين سيقع تدريبهم للإلتحاق بالجيش المتكوّن من صاحب ديوان المماليك ومستوفي ديوان المماليك، فكتّاب ديوان المماليك ثمّ شهود ديوان المماليك وهم كذلك من العسكريين.

2- مكانة ديوان الجيش في الدولة المملوكية:

سنحاول من خلال بعض المصادر أن نتبيّن مكانة ديوان الجيش في الدولة المملوكية، ومدى محافظته على هذه المكانة. فالمصادر التي تعود إلى القرن السابع والثامن للهجرة وكذلك مطلع القرن التاسع للهجرة مثل المصادر الوثائقية ونذكر على سبيل المثال، كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العمري وكذلك كتاب "صبح الأعشى" في صناعة الإنشاء للقلقشندي و"حسن التوسّل في صناعة الترسّل" لابن حبيب الحلبي، تبرز أنّ ديوان الجيش كان دائما يتصدّر الهرم السياسي والإداري للدولة وبقيّة الدواوين من دونه، لكن في المصادر المتأخرة نسبيّا مثل كتاب "الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم "للسحماوي"، فقد بيّنت أنّ مكانة ديوان الجيش تراجعت وأنّ ناظر الجيش أصبح في المرتبة الرابعة بعد كاتب السر والوزير وناظر الخاص، أي أنّ مكانة ديوان الجيش تراجعت لحساب دواوين أخرى في الدولة مثل ديوان الإنشاء والوزارة وديوان الخاص. ونجد صدى لهذا التراجع في مصادر أخرى مثل كتاب "النجوم الزاهرة لابن تغري بردي"، و"مسالك الأبصار للعمري"، و"زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" للظاهري، أمّا بعض المصادر الأخرى فهي لا تذكر أي تحوّل يهمّ تغير أو تراجع مكانة ديوان الجيش في الترتيب السياسي والإداري المملوكي. ونجد صدى لهذا التغيّر في مكانة ورتبة ديوان الجيش في الدولة المملوكية في بعض الدراسات الحديثة[10].

لكن رغم وجود هذا التراجع في رتبة ديوان الجيش في ترتيب مؤسسات الدولة المملوكية إلاّ أنّه يبقى المؤسّسة الرئيسية، لأنّها تنظّم الجيش وتعمل على استقراره من أجل استقرار وتواصل الدولة، ويذكر القلقشندي في هذا الصدد: "ديوان الجيش، لا يكون صاحبه إلاّ مسلما، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة، وبين يديه حاجب وإليه عرض الأجناد وخيولهم، وذكر حلاهم وشيات خيولهم، وكان من شرط هذا الديوان عندهم ألاّ يثبت لأحد من الأجناد إلاّ الفرس الجيّد من ذكور الخيل وإناثها دون البغال والبراذين، وليس له تغيير أحد من الأجناد ولا شيء من إقطاعهم إلاّ بمرسوم. وبين يدي صاحب هذا الديوان نقباء الأمراء، يعرّفونه أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير ذلك، ...، كما قد فسح للأجناد في المقايضة

بالإقطاعات لمالهم في ذلك من المصالح كما هو اليوم، بتوقيعات من صاحب ديوان المجلس من غير علامة، ولم يكن لأمير من أمرائهم بلد كاملة، وإن علا قدره إلا في النادر. ومن هذا الديوان كان يعمل أوراق أرباب الجرايات وله خازنان برسم رفع الشواهد"[11]. نلاحظ إذا أنّ الدور الرئيسي لديوان الجيش هو السهر على تأسيس جيش مملوكي أوّلا ثمّ تنظيم العلاقة بين الجيش والسلطة وبين السلطة والمجتمعين المصري والشامي. فكيف تمّ تنظيم الجيش المملوكي؟ وما هي شروط الإنتماء إليه؟

II- تركيبة الجيش المملوكي:

قبل التطرّق إلى تركيبة الجيش المملوكي، رأينا أنّه من الأجدى إبراز شروط الإنتماء لهذا الجيش، وقد تكون هذه الشروط من بين خصوصيات الجيش المملوكي. فكيف يتمّ تكوين المملوك عسكريّا؟

تبيّن بعض المصادر التاريخية[12] أنّ المملوك هو المؤهّل الرئيسي في الدولة لكي يصبح جندياّ، باعتبار أنّ الجيش المملوكي لا يحوي أجناسا أخرى غير المماليك، ولكن هذا بقي نظريا فحسب، لذلك لابدّ من توفّر الشروط التالية:

- أن يكون المملوك غير مسلم.
- أن يكون مولودا في بلد أجنبي ومن المستحسن من بلد القبجاق، ويكون ذو بشرة بيضاء.
- أن يقع شراءه وهو صبيّا أو غلاما.

يقوم السلطان، الذي لا يُستثنى عن هذه القاعدة، بشراء المماليك الصغار من تاجر المماليك، ثمّ يأمر بوضعهم في مكان خاصّ يُسمّى الطباق[13]، الذي يوجد فيه مختصّون لتربية وتنشئة المماليك، وهم الذين تسمّيهم المصادر بالطواشي الخصيان [14]، مع العلم أنّه توجد مجموعة من هذه الطباقات، الخاصّة بالمماليك، أين يقع تعليمهم فنون الحرب والقتال والتدريبات العسكرية بمختلف أنواعها، وكذلك أصول الدين والفقه الإسلامي واللغة العربية وتقع أسلمتهم، ويواصل تدريبهم وتعليمهم إلى أن يشبّوا عندها يقع عتقهم ليدمجوا في الجيش المملوكي[15]. وأيّ سلطان لابدّ أن يمرّ بهذه المراحل ليصبح فيما بعد رأس الجهاز السياسي والعسكري والإداري للدولة. ويعتبر المؤرخون[16]أنّ المماليك يبحثون عن الرجل العسكري

المفقود في مصر، بل أكثر من ذلك " إنّ السكّان المصريين المحليّين لم تكن لهم القدرة على حمل السلاح"[17]. فما هي خصائص تركيبة هذا الجيش؟

أوردت عديد المصادر، وكذلك المراجع[18] أنّ الجيش المملوكي يتكوّن من ثلاث فئات رئيسيّة وهي كالآتي:

المماليك السلطانية، مماليك الأمراء، أجناد الحلقة، ونجد ذكرا لفئة رابعة لكن لا توليها المصادر نفس الأهمية التي توليها للفئات الثلاث السابقة والمتمثّلة في مماليك أبناء الأمراء، والمعروفة باسم أولاد النّاس. وكلّ فئة من هذه الفئات الأربع تحوي تقسيمات فرعيّة سوف نبيّنها باختصار لأنّها في الحقيقة ليست موضوع البحث.

1- أجداد الحلقة[19]

وهي الفئة الثانية في الجيش المملوكي، عُرفت فرق الحلقة في الجيوش الإسلاميّة السابقة للعهد المملوكي، حيث ذُكرت من قبل المصادر في العهد الزّنكي، وفي العهد الأيّوبي وتحديدا في جيش صلاح الدّين[20]. أمّا في الجيش المملوكي فقد تكوّنت تلك الفرقة من محترفي الجنديّة من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، ويشرف على كلّ ألف منهم أحد الأمراء المئتين، كما كان لكلّ مئة منهم نقيب، ويُشترط فيه الإلمام بمحلّ إقامتهم لجمعهم عند الطلب.

وليس للأمير سلطة عليهم إلاّ في الحرب، وقد أُضيف إليهم المأجورين من التركمان والبدو الذين كانت مصالحهم ترتبط بالسلطان لحماية ممتلكاتهم، حيث أنّهم أحرار أو مماليك حصلوا على حرّيتهم أو ربّما كانوا من أبناء المماليك السلطانيّة، ونلاحظ أن هذه الفرقة العسكرية ليست متجانسة ثمّ لا يكوّنها المماليك فحسب.

يتمتّع أجناد الحلقة بإقطاعات في كامل أرجاء الدولة المملوكيّة مقابل حضورهم وقت الحاجة أي في الحروب، حيث كانوا يقيمون بإقطاعاتهم على خلاف المماليك السلطانية الذين كانوا في طباق القلعة وجميع نفقاتهم على السلطان. وقد كان لكلّ أربعين من أجناد الحلقة مقدّم[21]. ويبدو أنّ تسمية أجناد الحلقة جاءت في إطار أنّ هؤلاء عبارة عن مجموعات متفرّقة في كامل أرجاء السلطنة بما في ذلك الثغور والقلاع وحين يتمّ طلبها تأتي في حلقات، وكلّ حلقة تملك سلاحها وتجهيزاتها، فهي تأتي في شكل مجموعات. وقد بيّنت المصادر[22] أنّ المماليك السلطانيّة يمكن أن يصبحوا من أجناد الحلقة إذا أنعم عليهم السلطان بذلك من خلال فكّ الارتباط معهم بإعطائهم إقطاعا في الدولة لكن المشتروات يقع استثناءهم من هذا الإجراء. ويمكن

اعتبار أنّ المماليك السلطانيّة كانوا أوفر حظّا في الرواتب حيث يفوق راتبهم أجناد الحلقة، كما أنّ امرة أجناد الحلقة تزول بمجرّد انتهاء الحرب، وليس له على الجند سلطان، بعكس المماليك السلطانيّة الذين يبقى لهم حقّ الإمرة على جنودهم. ولكن إثر انتهاء سلطنة الناصر محمّد بن قلاوون، دخلت عناصر غريبة تدريجيّا إلى أجناد الحلقة وذلك من قيام أجناد الحلقة المعيّنين من قبل السلطان ببيع أقطاعاتهم ومبادلتها بالمال، وصار أجناد الحلقة أكثرهم من أصحاب حرف وصنائع[23]، كما كان ضمن أجناد الحلقة أبناء أمراء المماليك أيضا، ودخل أولاد السلاطين أنفسهم أجناد الحلقة، ومثّلوا أكابر أجناد الحلقة وأطلقت عليهم تسمية الأسياد[24].

2- أجداد الأمراء:

الفئة الثالثة التي تكوّن الجيش المملوكي، والمقصود بهم مماليك الأمراء. يتلقّى جنود الأمراء أوامرهم مباشرة من أمرائهم وليس من السلطان كالمماليك السلطانية أو أجناد الحلقة، وهم مسجّلون في ديوان الجيش تحت اسم أميرهم ولا يستطيع الجندي أو الأمير تغيير تبعيّته إلاّ بأمر سلطاني عن طريق الدّيوان، وكانت رواتب وأعطيات أجناد الأمراء أكثر من رواتب وأعطيات أجناد الحلقة. وأمراء الأجناد كانوا مماليك صغارا ثمّ أنعم عليهم السلطان بالحريّة لكفاءتهم القتاليّة، وأعطاهم صلاحيّات وإمرة تشريفيّة خاصّة، وكانت الرتبة التي يحصل عليها الأمير المملوكي تجعله سلطانا مصغّرا له اسطبل ومخازن ومجموعة من المباني وله من الموظّفين ما يكفيه، إضافة إلى اقتنائه عددا من المماليك سمّوا بأجناد الأمراء[25].

ونجد أنّ الأمراء يقسّمون إلى أربعة أقسام من حيث الأهميّة والرتبة في الجيش وفي الدولة عامّة. يمثّل أمراء المئة وتقدمة الألف الدرجة الأولى ويتولّون المناصب العليا في الدولة ومنهم يقع اختيار السلطان. أمّا القسم الثاني فيمثّله أمراء الطبلخاناه، يليهم أمراء العشرة ثمّ أمراء الخمسة. وجميع هؤلاء الأمراء وخاصّة منهم أمراء المئة والطبلخاناه قاموا بتكوين حرس خاصّ من المماليك مثل السلطان، ولم يكن عدد هؤلاء المماليك محدّدا بل كان مرتبطا بمدى قدرة الأمير المادّية ورتبته، كما لم يكن عدد الأمراء بدورهم ثابتا، فمن السلاطين من أنقص أعداد الأمراء ومنهم من زاده[26]. وما يمكن ملاحظته أنّ هذه الفرقة في الجيش المملوكي كانت أكثر تجانسا.

3- أبناء الأمراء:

الفئة الرابعة والمكوّنة بدورها للجيش المملوكي والتّي تسمّيها المصادر بأولاد النّاس وهم ليسوا مماليك، واشتهر مماليكهم باسم مماليك أولاد النّاس.

4- للمماليك السلطانية:

هي الفئة الأولى في الجيش، هذه الفئة تتكوّن من أربعة فرق كالآتي:

- الفرقة الأولى هي الخاصكيّة: هي الفرقة الأولى ضمن فئة المماليك السلطانية، يختار السلطان أفرادها، ليكوّن منهم حرسه الخاصّ. يلازمون السلطان في خلواته ويقومون أساسا بالمهمّات الشريفة، مثل تنفيذ أحكام الإعدام بالأمراء، والقبض على أعداء السلطان. والخاصكية هم من الأمراء الذين شغلوا مناصب عسكرية في الدولة مثل نائب السلطنة (يسمى بالنائب الكافل، وهي أعلى رتبة سياسية وعسكرية وإدارية في الدولة بعد السلطان، وعادة ما ينوب السلطان في القلعة عند خروج هذا الأخير لأمر ما.) ورأس نوبة (هم كبار الأمراء العسكريين على المماليك السلطانية: أربعة أمراء واحد مقدّم ألف وهو أمير الخاصكية وثلاث طبلخاناه) وداوادار (من يهتم بشؤون البريد للعسكر، برتبة أمير)، وسلاحدار (رتبة من كبار الأمراء وهو من يحمل السلاح للسلطان). وأحيانا يتدخلون في الشؤون الداخلية للدولة، وفي صراع السلاطين مع الأمراء وتاريخ الدولة المملوكية حافل بمثل هذه الصراعات خاصة على السلطة. كما شكّلت هذه الفرقة من المماليك السلطانية خطرا على مركز السلطان واستقرار حكمه وتواصله، حيث كانوا في عديد الأحيان يتمرّدون على قراراته وحتّى على أوامره، ويجبرونه على تقديم تنازلات لهم.

وقد كانت هذه الفرقة تتقاضى راتبا ماديا، يُعرف بالجامكية، وهو راتبا شهريّا، لكن قيمته غير قارّة، وعادة ما يدفعه السلطان من ماله الخاص، ومن بيت المال، إضافة إلى أشكال أخرى من الرواتب مثل اللحم والخبز، وكسوتين في السنة، والشمع والحلوى خاصة في المناسبات، وأحينا يتمتّع الخاصكيّة بإقطاعيات، رغم تمركزهم بالقاهرة، كما أُفردت هذه الفرقة بديوان الخاصّ الذي يسيّر مختلف شؤونها داخل الدولة، وفي أواخر العهد المملوكي أصبح الخاصكي بدوره يشتري المماليك الخاصّين به، وهو ما شكّل خطرا على السلطان القائم. وقد تكون هذه الفرقة ضمن المماليك السلطانية هي الأكثر تجانسا وعلاقتهم بالسلطان القائم مبنية على الخشداشية أي على الأخوة.

- الفرقة الثانية هي القرانيص: وهم مماليك السلاطين المتوفّون، ويقسّمون بدورهم إلى ممالِيكك السلاطين المتوفين منذ أمد بعيد، ومماليك السلاطين الذين ماتوا حديثا. أي أنّهم كانوا من الخاصكيّة قبل وفاة أستاذهم، هذه الفرقة لم تكن متجانسة، ولم تكن فرقة عسكرية واحدة، وذلك لانتساب كلّ مجموعة منهم إلى السلطان الذي أعتقهم. وعادة ما تكون فرقة القرانيص من الفرق المقرّبة للسلطان عند اعتلائه العرش، خاصة إذا ما تمّ توارث السلطة (أي اعتلاء ابن السلطان المتوفّي العرش، وتمّ ذلك مثلا في أبناء المنصور قلاوون وأحفاده)، ولكن عند تكوين خاصّته من مشترواته يقع التخلّي عنهم، وأخذ التدابير اللازمة لمراقبتهم، وأحيانا محاربتهم وملاحقتهم وتشتيتهم، حيث كان السلطان القائم كثيرا ما يخشى قوّة القرانيص الحاقدين عليه لعدم ترقيتهم، وسطوتهم وتدبيرهم الفتن والمؤامرات للإطاحة به خاصة إذا ما كان هو قاتل أو المتسبب في قتل أستاذهم، وبالتالي الثأر له مثلا: خاصكية الناصر محمد بن قلاوون خافوا على مصيرهم عندما كان أستاذهم يحتضر، ويقول في ذلك المفضل بن أبي الفضائل في كتابه النهج السديد":*قوي عليه النزاع وتوجعت له خواطر مماليكه وشرع كل منهم يفكر فيما يلقاه بعده*"[27] وبالتالي ما يجمع بين هذه الفرقة من المماليك السلطانية الغير متجانسة هو حقدهم على السلطان القائم وعلى خاصكيته، ومحاولة قتله أو عزله باغتصاب السلطة منه، والأمثلة على ذلك عديدة خاصة في ظل الدولة المملوكية الثانية، الدولة الجركسية، مثلا السلطان لاجين كان ممن اشترك بمقتل السلطان الأشرف خليل وحلّ محلّه، فاتفق من كان من خاصكيته على الثأر لأستاذهم من لاجين وتآمروا عليه مع القائم بحراسته وقتلوه.)

ما نلاحظه أنّ علاقة السلطان القائم بالقرانيص هي علاقة تطغى عليها الكراهية المتبادلة والحقد، لذلك يحاول السلطان أن يكون حذرا، مثلا كان يعمد إلى عزلهم من الطباق في القلعة التي تعتبر رمز قوة السلطان، والذي يكاد يكون خاصّا بخاصكيته، ويسكنهم في أي طباق آخر خارج القلعة، باستثناء فئة قليلة منهم ما تسميهم المصادر "بالكتابية"، حيث يشتريهم من جديد ويعتقهم بعد أن يكونوا قد أتموا تعليمهم وبذلك يصبحون جزءا من مشترواته، بينما تُفرض مراقبة وأحيانا محاصرة على بقية القرانيص الذين عادة ما يقع تجميعهم في طباق واحد خارج القلعة، وأحيانا أخرى يشرع السلطان بنفسه في تصفيتهم بذبحهم أو بالخازوق

ويُترك إلى أن يموت إلخ... مثلا يورد ابن إياس في كتابه بدائع الزهور[28]،" أنّ السلطان الناصر فرج، سنة 1414م، كان يأمر ببطح المملوك من القرانيص والذين كانوا خاصكية أبيه، ويذبحه بيده، وقد يدوس على رأسه أو ربما يتبول عليه أو يسكب عليه الخمر انتقاما بعد أن يسأله عن سبب تمرّده وكان يذبح أحيانا في ليلة واحدة مائة مملوك، وفي هذه السنة أي 1414، قتل ستمائة مملوك من القرانيص، ويبرّر ابن إياس ذلك بأن السلطان الناصر فرج كان يسامح من تمرد من القرانيص أكثر من ثلاث مرات ومع ذلك فإنهم يعودون للغدر به، والثورة عليه".

وقد تكون الدوافع التي تبرّر التصرّف العدائي للقرانيص تجاه السلطان القائم عديدة لكن لعلّ أبرزها هو تدنّي رتبة هؤلاء في المماليك السلطانية عامة، فهم كانوا يحتلون الرتبة الأولى في هذه الفرقة بموت أستاذهم تتدنّى رتبتهم إلى الثالثة بعد الخاصكية والأجلاب، ويصبح ارتقاء الفرد منهم إلى رتبة الخاصكية مجدّدا صعبة إن لم تكن مستحيلة، وبالتالي فإنّ دورهم في السلطة السياسية ونفوذهم في الحياة الإقتصادية سيتراجع.

- الفرقة الثالثة من المماليك السلطانية هم المُشتروات: وتسمّيهم المصادر التاريخية[29] الجلبان أو الأجلاب[3130]. فالأجلاب هم الرقيق صغار السن، الذين يشتريهم السلطان القائم من تجار خاصين، ويأمر بوضعهم في طباق خاصّ بهم وعادة ما يكون هذا الطباق داخل القلعة أو خارجها ومُحاذيا لها لكي يتسنّى للسلطان زيارتهم. ويُكلّف مختصّين بهذه المهمة على الإشراف على تنشئتهم وتربيتهم وتعليمهم، لغة عربية، شؤون دينية، فنون حربية...، وعندما يجهزون، يتمّ نقلهم إلى الطباق المخصص للخاصكية، داخل القلعة، ويتمّ أيضا عتقهم، وضمّهم إلى خاصّة السلطان القائم، ويتمتّعون بجميع امتيازات الخاصكية، وهو ما كان يثير غضب القرانيص. أمّا الجلبان، فهم من مشتروات السلطان البالغين.

وتضمّ هذه الفرقة الثالثة من المماليك السلطانية ما تسمّيهم المصادر "بالوافديّة"، و كذلك ب"المستأمنين" أو " المستأمنة" والتّي كانت بداية وفودها على الدولة المملوكية في عهد السلطان الظاهر بيبرس وضمّت في البداية الهاربين من هولاكو وتقول المصادر أنّ عددهم أكثر من مائتي فارس بنسائهم وأولادهم[32]، ودخل عدد منهم في خدمة الأمراء المماليك لكن ترقيتهم في صفوف الجيش المملوكي، خلال عهد دولة المماليك الأولى، أي دولة المماليك الأتراك، كانت محدودة مقارنة بمن هم مماليك، حيث لم يصل ولو زعيم منهم إلى ما وصل إليه نظيره من المماليك السلطانيّة. وقد يكون السبب في بطء ومحدوديّة ترقية الوافديّة في الجيش المملوكي إلى تعصّب

المماليك وانغلاقهم ضدّ من يعتبرونه دخيلا على تربيتهم ونظام تنشئتهم، كما أنّ المماليك السلطانيّة ينظرون إلى هؤلاء الوافديّة على أنّهم أحرار، وينظرون إلى أنفسهم على أنّهم "أرباب الفروسيّة المملوكيّة دون غيرهم من فئات الجيش المملوكي"[33] وخاصّة دون غيرهم من الوافديّة. وفي أواخر عهد الدولة التركية وتحديدا خلال سلطنة كتبغا 1294م، قدمت إلى مجال الدولة المملوكية مجموعات أخرى من الوافدية عرفوا في المصادر ب"جماعة الإويراتية"، وهم مجموعات غير مسلمة من الشعوب المغولية التي ناصرت طرغاي بن هولاكو وفدت على المجال المملوكي إثر تولّي غازان زعامة المغول، وقد استقدم السلطان القائم أكابرهم إلى مصر ومنحهم ترقية برتبة أمير طبلخاناه، وولاّهم أمر ملاحقة اللصوص، وجعلهم من المماليك السلطانية، بعد أن ضمهم إلى الجلبان، وهو ما يعكس لنا تغيّر سياسة السلاطين المماليك، أواخر سلاطين الدولة التركية وبداية الدولة الجركسية، أو البرجية، وصارت رتبهم أعلى من رتب القرانيص، أمّا الباقين منهم فقد وقع ضمّهم إلى أجناد الحلقة، أي أصبحوا يتمتعون بإقطاعات داخل الدولة وهو ما لا يتمتّع به أحيانا الخاصكية والقرانيص دائما.

وقد شكّلت هذه الفرقة من المماليك السلطانية أحيانا سندا للسلطان القائم خاصة إذا ما تغافل عن أسلوبهم في سلب الناس ونهب الأسواق، أمّا إذا ما حاول السلطان ردعهم، فإنّهم يكيدون له ويتحالفون مع غيره للإطاحة به خاصة إذا ما تقاضوا مبالغ من الأموال ووُعدوا بإقطاعات وبترقيتهم. هذه الفرقة ضمّت عناصر غير مملوكية وغير مسلمة ومتشبّعة بعادات شعوبها وقد تجسّد بدورها إحدى النخب العسكرية ضمن فئة المماليك السلطانية.

- أمّا الفرقة الرابعة فهي السيفيّة، وهم مماليك الأمراء الذين، توفّوا أو قتلوا أو عُزلوا أوسجنوا، أو أسقطت عنهم الإمارة وصُودرت أقطاعاتهم وكذلك مماليكهم، وبالتالي فهناك نوعا من التشابه بينهم وبين القرانيص، من حيث تركيبتهم، لكن يختلفون عنهم في قبولهم بالأمر الواقع، وخدمة السلطان القائم، ومساندته وعدم إثارة الفتن للإطاحة به أو قتله لأنّ وضعهم لن يتغيّر مع أي سلطان قائم وعلاقتهم المباشرة هي مع أساتذتهم الأمراء وليس مع السلطان وأحيانا كثيرة يعتبرون ضمّهم إلى فرقة المماليك السلطانية هو نوع من كرم السلطان عليهم.

ففرقة المماليك السلطانيّة تعدّ أهم فرقة في الجيش المملوكي إذ يقول القلقشندي في شأنها" وهم أعظم الأجناد شأنا، وأرفعهم قدرا، وأشدّهم إلى السلطان قربا، وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة، وهم في العدّة بحسب ما يُؤثره السلطان من الكثرة والقلّة وقد كان لهم في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثمّ في أيّام السلطان الظّاهر برقوق العدد الجمّ والمدد الوافر لطول مدّة ملكهما واعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها"[34].

خاتمة

تُعتبر فرقة المماليك السلطانيّة فرقة عسكريّة غير متجانسة، لها أصولا متعدّدة وكذلك لها انتماءات مختلفة وأهداف متباينة، فترتيبها من حيث دورها وعلاقتها بالسلطان هرمي فأكثرهم قربا للسلطان هم الخاصكيّة يليهم المشتروات أو الأجلاب ثمّ القرانيص ثمّ السيفيّة وهم الأكثر تهميشا في فرقة المماليك السلطانية، وهذا يعني أنّ فرقة المماليك السلطانيّة رغم التصاقها بالسلطان الحاكم ومكوثها معه القلعة وتحديدا في طباق القلعة والإمتيازات التّي يُستأثرون بها في الأكل والكسوة والمهام وحتّى السطوة إلاّ أنها تمثّل خطرا كامنا على السلطان القائم وعلى الدولة، لذلك نجد هذا الأخير يكثر من شراء المماليك الخاصّين به أي المُشتروات أو الأجلاب لحماية نفسه وسلطانه. كما نستنتج من هذا المبحث كيفيّة ارتقاء هذا الجيش بجميع فرقه إلى مستوى النخبة ليس بالولادة بل باكتساب الخصال المرتبطة باستعمال السلاح وبالهيمنة على وسائل الإنتاج والثروات وكذلك الحكم والسلطة.

الهوامش:

[2] - العمري (ابن فضل الله)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، 1988.

- الطرسوسي (نجم الدين إبراهيم بن علي)، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق السيد رضوان، بيروت، 1992.

- القلقشندي (أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (14 ج)، تحقيق علي يوسف الطويل، بيروت، 1987.

[3]- المقريزي (تقي الدين)، السلوك لمعرفة دول الملوك، (4مج)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1956.

- المنصوري (بيبرس الدوادار)، التحفة الملوكيّة في الدولة التركيّة، تقديم عبد الحميد صالح حمدان، ط.1، القاهرة، 1987.

[4]-Martel Thoumian (B.)، *Les civils et l'administration dans l'état militaire mamluk*, IX-XV siècle, Damas, 1992.

[5] - ابن تغري بردي، مورد اللطافة فيمن وُلّي السلطنة والخلافة، (2 مج.)، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، القاهرة، 1997.

[66]- رسم السلطان قلاوون في شعبان 688هـ/1289م "ألاّ يستخدم أحدا من الأمراء وغيرهم في دواوينهم أحدا من النصارى واليهود، وحرض على ذلك فامتثل ذلك الأمراء جميعهم"، أورده حمزة (محمّد) والحدّاد (إسماعيل)، السلطان المنصور قلاوون (تاريخ مصر في عهده – منشآته المعمارية)، القاهرة، 1993، ط.1.
المقريزي، السلوك ج2 ص125" وفي رابع عشريه (شهر شوّال أحداث سنة 678هـ/1279م)، أمر بصرف كتّاب الجيوش المنصورة من النصارى وان يستخدم بدلا منهم كتاب مسلمون".

[7]- المقريزي، **السلوك**؛ مصدر سبق ذكره، القلقشندي، **صبح الأعشى**؛ مصدر سبق ذكره، السحماوي، **الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم**، تحقيق أشرف محمد أنس، القاهرة، 2009.

[8]- يقول القلقشندي: "نظر الجيش وموضوعها التحدّث في أمراء الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطّه، وهي وظيفة جليلة رفيعة المقدار. ولناظر الجيش أتباع بديوان يولّون عن السلطان، كصاحب ديوان الجيش وكتّابه وشهوده، وكذلك صاحب ديوان المماليك، وكاتب المماليك وشهود المماليك. فإنّ المماليك السلطانية فرع من الجيش ونظرهم راجع إلى ناظر الجيش". أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.4، ص.30.

[9]- المقريزي، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (2مج)، القاهرة، د. ت.**

[10] -Bernadette Martel-THOUMIAN, *Les civils et l'administration dans l'Etat mamluk (Ixe/XVe. s)*, op. cit ,p.29 .

[11]- القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.3، ص.565.

[12]- النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، القاهرة، 1992، ج.30.

[13]- يذكر المقريزي أنّ أوّل من أنشأ الطباق هو السلطان الناصر محمّد بن قلاوون سنة 729هـ، المقريزي **الخطط**، مصدر سبق ذكره، ج2.، ص.189.

- أمّا الظاهري، فهو يرجع بناء الطباق لعهد السلطان الظاهر بيبرس المتوفّى سنة 676هـ ويذكر عددها اثنى عشر طباقا وكلّ واحدة قادرة على احتواء ألف مملوك. أنظر: الظاهري، **زبدة كشف الممالك**، مصدر سبق ذكره، ص 67.

[14] -«les eunuques tenaient une grande place dans les écoles militaires, comme dans toute la société mamelouke. L'homosexualité était très répandue et les eunuques avait la tache particulièrement lourde d'en écarter les jeunes gens qui leur étaient confi. L'eunuque était

totalement responsable de son pupille,et des liens très fort, qui duraient toute la vie, s'établissaient entre eux. Devenus des hommoes, souvent importants, ils leur manifestaient leur reconnaissance en favorisant leur ascension dans l'échelle des honneurs. Cette échelle était considérable, un eunuque, comme un mamelouk de haut rang ou un Karani intime du sultan pouvait accéder à des postes aussi importants...L'eunuque qui avait élevé un mamelouk n'était donc pas un simple precepteur. Il appartenait, lui aussi, à une élite, à une caste, comme le marchand qui avait vendu le mamelouk à son maitre, comme le mamelouk lui-même, Clot(André), *L'Egypte des mamelouks* : *L'empire des esclaves (1250—1517)*, Perin, Paris, 1996, p. 49

15" -Le jeune mamelouk acheté par le sultan, était placé dans une école spéciale ou il recevait l'entrainement militaire et l'instruction religieuse jusqu'à ce qu'il atteignit l'âge d'adulte et qu'il devint soldat accompli. Quand il avait terminé ses études, il était affranchi, puis il recevait l'équipement militaire et était affecté au corps des mamelouks royaux ». Ayalon (D.), *The mamluk miltary socity*, texte imprimé, collected studies, London, 1979, p213.

16 - ابن تغري بردي (أبو المحاسن)، حوادث الدهور في مدى الأيّام والشهور، 2 مج.، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين، عالم الكتاب، 1990.

17 -W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, I-II, Leipzig, 1923, p 555.

18- العريني السيد الباز، **المماليك**، بيروت، د. ت. الفصل الثاني، ص.53 وما يليها؛ ضومط أنطوان خليل، **الدولة المملوكيّة**: التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، 1290-1422، بيروت، 1982، ص 294.

19- الحلقة لغويّا تعني كلّ شيء استدار كحلقة الحديد والذّهب والفضّة، وكذلك إذا استدارت مجموعة من النّاس. أنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج.10، ص.61.

- الحلقة اصطلاحا، وردت في مصادر تاريخيّة متنوّعة بمعنى السلاح، وبمعنى الدروع كونها مصنوعة باستدارة. أنظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج.6، ص.319.

20- ابن الأثير، **الكامل**، ج.10.

21- «ولكلّ أربعين نفسا منهم مقدّم منهم، ليس له عليهم حكم إلاّ إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه، وترتيبهم في موقفهم إليه». أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.4، ص.16.

22- المقريزي، **الخطط**، مصدر سبق ذكره، ج.1، ص.250، ج.2، ص.2- 5.

23- **المصدر السابق**، ج.3، ص.355- 356.

24- ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، ص.142.

- " أجناد الحلقة، وهم عدد جمّ وخلق كثير، وربّما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعمّمين وغيرهم، بواسطة النزول عن الإقطاعات": أنظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.4، ص.16.

[25]- أورد خليل بن شاهين الظاهري الآتي فيما يخصّ الأمراء: " كانت رتب وأعداد الأمراء كالآتي: 24 أمير مئة، 40 أمير طبلخاناه، 20 أمير عشرين، 150 أمير عشرة، و30 أمير خمسة". أنظر: الظاهري، **زبدة كشف الممالك**، مصدر سبق ذكره، ص.153.

[26]- في بداية الدولة المملوكية الأولى بلغ عدد أمراء المئة 24 أميرا ونقص إلى عشرين ثمّ إلى 18 في أواخرها. وفي العهد الجركسي، نقص عدد أمراء المئة حينا وزاد حينا آخر. ففي عهد السلطان إينال، بلغ عددهم أحد عشر أميرا وفي عهد خشقدم ثلاثة عشر أميرا. أنظر: عاشور (سعيد عبد الفتّاح)، **العصر المماليكي**، دار النهضة العربية، 1976، ص.67.

[27] - المفضّل بن أبي الفضائل، النهج السديد، نص مطبوع، القاهرة 1962، ص 93.

[28] - ابن إيّاس، بدائع الزهور، مصدر سبق ذكره، ج.1، ص 353.

[29]- المقريزي، **السلوك**، مصدر سبق ذكره؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، مصدر سبق ذكره، ج.16.

[31]- الظاهري، **زبدة كشف الممالك**، مصدر سبق ذكره، ص 34.

[32]- "واستقبل السلطان بيبرس بنفسه هؤلاء الوافدية، وأنزل كبرائهم في دور أقامها لهم، أعطاهم أمريات في فرقته البحريّة السلطانيّة، ثمّ أفرد لكلّ منهم جهة أقطاعية يعيش منها، وتظاهر أولئك الوافدية بالدين الإسلامي". أنظر: المقريزي، **الخطط**، ج.3، مصدر سبق ذكره، ص.190-191.

[33]- الباز، **المماليك**، مرجع سبق ذكره، ص. 58.

[34]- القلقشندي، **صبح الأعشى**، مصدر سبق ذكره، ج.4، ص.15- 16.